# مقدمة

## بقلم شيخ الأزهر المرحوم مصطفى عبد الرازق

موضوع التعليم ومناهجه موضوع جليل الشأن فى كل العصور . وفى كل الأمم . وقد عنى به الباحثون من العلماء والفلاسفة ، فألفوا فيه الرسائل ، وكتبوا فيه الكتب ، منذ عهد بعيد ولا يزال موضع اهتمام المفكرين والمصلحين .

ولا غرو فإن العلم أساسُ كل إصلاح ، وتاج كل نهضة . والتعليم ليس إلا السبيل إلى نشر العلم ، وتثقيف العقول به وتهذيب النفوس .

والمسلمون لم يتخلفوا عن غيرهم فى ميدان هذا البحث ، فقد كتب فى التعليم أئمتهم ومفكروهم منذ القرون الأولى . وكانت لهم أنظار طريفة لم يُخْلِق تطاول الزمن جِدّتها . على أن كثيراً من مؤلفات القدامى ضاع فيما ضاع من آثار السلف الصالح ، وكثيراً من مؤلفات القدامى ظل متوارياً عن الأنظار فى زوايا دور الكتب ، بين أكداس المخطوطات ، لا يهتدى إلى مكانه إلا المولعون بالبحث والتنقيب .

وهذا أثر من تلكم الآثار القيمة هو كتاب تفصيل أحوال المعلمين والمتعلمين ، لأبى الحسن على بن محمد القابسى المتوفى ٤٠٣ هجرية ، ١٠١٢ ميلادية ، ينهض لنشره الباحث المجتهد الدكتور أحمد فؤاد الأهوانى ، وينشر معه بحثاً فى « التعليم فى رأى القابسى من علماء القرن الرابع » .

ومن البحث والنص المخطوط تتألف الرسالة ، التى نال بها إجازة الدكتوراه من كلية الآداب .

أما كتاب القابسى فهو كتاب جليل الفائدة للباحثين فى التعليم وتاريخه عند المسلمين . وهو يصور حالة التعليم فى عصره من نواح قلما فطن لها مؤلفو ذلك الزمان .

وقد عُنى الأستاذ الأهوانى فى بحثه القيم ، بأن يترجم للقابسى ثم يعرض موضوعات كتابه عرضاً جديداً ، فراعى فيه تنظيمها وتوضيحها ، وردها إلى أصولها ، وربطها بمذاهب الفقهاء ، ومقالات المتكلمين .

وعُنى الدكتور الأهوانى أيضاً بأن يبرز ما فى آراء المؤلف من طرافة ، وما هو منها عرضة للنقد ، وأن يوازن بين مذهب القابسى وبين المذاهب الحديثة فى التربية والتعليم .

نال أحمد فؤاد الأهوانى برسالته حين قدمها إلى كلية الآداب إجازة الدكتوراه ؛ وهو إذ ينشر اليوم هذه الرسالة فى الناس ، جدير أن ينال التشجيع كله ، والثناء الجميل .

وإن كان تلميذنا الأهوانى من العلماء المخلصين ، لا يبتغى فى سبيل العلم وخدمته جزاء ولا شكوراً .

# مقدمة المؤلف

التربية نظام اجتماعي ينبع من فلسفة كل أمة ، وهو الذى يطبق هذه الفلسفة أو يبرزها إلى الوجود . . ولقد نادى الفلاسفة من أقدم العصور حتى اليوم ، منذ أفلاطون حتى ديوى ، بوجوب الاهتمام بالتربية ، باعتبارها ممثلةً للغرضين السابق ذكرهما ، انعكاس فلسفة الأمة وتطبيقها عملياً . غير أن أفلاطون ، وكذلك أستاذه سقراط ، لم يكن راضياً عن التربية السائدة فى زمانه ، ولا عن الفلسفة الجارية ، وأراد أن يفرض فلسفة جديدة ، هى المثالية ، أعلنها فى محاورة الجمهورية . فلما اكتملت عنده هذه الفلسفة ذهب إلى أنَّ حمل الناس عليها إنما يكون بنظام جديد من التربية ، فصّله فى الجمهورية ، وبيَّن ما ينبغى أن يتعلمه الصبى والشاب والرجل . وما يجب أن يغفله . وآخر مرحلة من مراحل هذه التربية هى الفلسفة التى يشرع الطالب فى تعلمها فى سن الخامسة والثلاثين ونحن نذكر أن أفلاطون أراد أن يعلم ملك صقلية ، فبدأ بالهندسة التى كان يعدها مدخلاً للفلسفة ، وكانت الفلسفة عنده هى الصناعة التى تجعل صاحبها حاكماً . ولكن الملك الشاب ضاف ذرعاً بذلك النظام التربوى ، وقبض على أفلاطون وسجنه .

وفى الوقت الحاضر نجد التربية صدى فى كل أمة لفلسفتها ، وهى المعبرة عن روحها . فالتربية التى ذكرها جون ديوى مثال لما يقال اليوم من « التربية الحديثة » . والمقصود منها معارضة النظم التقليدية فى التربية التى كانت تجعل الطالب مجرد آلة تستقبل المعلومات وتحفظها . دون أن يكون للطالب نشاط أو فاعلية . على العكس من ذلك تنادى التربية الحديثة بأن يكون الطالب « فاعلاً » ، هو الذى يحصل ، وهو الذى يعلم نفسه بنفسه ، وليس موقف المعلم منه إلا مرشداً . وبعد ، فإنّ أساس التربية الحديثة ، فى الدول الغربية ، هو الحرية ، والديمقراطية ، والفردية .

والتربية الإسلامية هى أيضاً جهاز اجتماعى يعبر عن روح الفلسفة الإسلامية من

جهة ، وهذا الجهاز هو الذى يحقق تلك الفلسفة من جهة أخرى . فطن النبى عليه السلام منذ أول ظهور الإسلام إلى أهمية التربية فوجَّه النظر إليها ، وأمر بتعليم القراءة والكتابة ، ولم يكد القرن الثانى الهجرى حتى كان ثمة جهاز تربوى متغلغل فى كل ناحية من نواحى المجتمع الإسلامى ابتداء من الكتاتيب التى تعلم الأطفال والصبيان ، إلى المدارس العليا التى تعلم الكبار وقد ازدهرت الحضارة الإسلامية بسبب دقة هذا النظام وانتشاره . فكانت تلك التربية محققة لروح الإسلام .

ولنا أن نسأل اليوم : هل التربية الجارية فى الوقت الحاضر فى الدول الإسلامية معبرة عن الإسلام ، ومحققة له ، بحيث يتخرج الطالب فى المدارس الموجودة حالياً مسلماً بمعنى الكلمة ، كما كان المسلمون منذ عشرة قرون ؟ أو أن النظم الحديثة ، أو « التربية الحديثة » تجافى الروح الإسلامية وتتنافى معه ؟ وإذا شئنا أن يتم التوفيق بين الإسلام والتربية الحديثة فعلى أى أساس يكون ؟ وكيف يمكن أن نصنع فى الوقت الحاضر تربية إسلامية ؟

كل هذه الأسئلة لن يتيسر الإجابة عنها إلا بالرجوع إلى التربية الإسلامية فى تاريخها ، للاسترشاد بالأساليب الناجحة التى اتبعت قديماً ، ومحاولة تطبيقها اليوم ، أو تعديلها بما يتفق مع نمو الدراسات النفسية ، والاجتماعية ، والتربوية فنقول :

صحبت التربية الإسلام منذ بدء ظهوره وانتشار نوره على يد النبى الذى أرسله الله تعالى إلى الناس كافة يعلمهم أمور دينهم ودنياهم ، ويرشدهم إلى الطريق المستقيم ، فكان رسول الله ﷺ أول معلم فى الإسلام . وقد قامت التربية الإسلامية منذ بدء ظهورها على أمرين : هما القرآن والسنة ، القرآن كتاب الله ، والسنة عمل النبى وأحاديثه . ولما كان القرآن كتاباً ثابتاً منذ أنزل حتى اليوم ، يحفظه المسلمون ويرجعون إلى أحكامه ، ويهتدون بآياته ، وكانت سنة الرسول مدونة كذلك ويحفظها أئمة المسلمين ، وهى تعد مكملة للكتاب ، ونبراساً يهتدى بها المسلمون فى سلوكهم ، فلا غرابة أن يمتاز الإسلام بضرب خاص من التربية تختلف فى أهدافها ووسائلها عن ألوان التربية الأخرى التى سادت حضارات شتى على مر الزمان ، واعتمدت على دعائم مغايرة لتعاليم الإسلام . فقد كانت هناك قبل ظهور

الإسلام أنواع ثلاثة من التربية تتنازع السيادة فى الشرق الأوسط : الأولى التربية الفارسية ، والثانية التربية الإغريقية ، والثالثة التربية المسيحية . وكان لكل نوع منها طابع خاص يميزها ويعتمد على روح الفلسفة الممثلة لكل منها . وينبغى أن نعلم أنه على الرغم من أن الإسلام بعد انتشاره فى الأمصار المختلفة قد اتسع لأدب الفرس ، وفلسفة اليونان ، وأنظمة الروم ، ورهبنة المسيحية ، فإنه ظل أقوى من تلك الثقافات جميعاً ، متغلباً عليها ، حتى ليصح القول : بأن التربية الإسلامية ، برزت على ما عداها ، وأصبحت ذات خصائص واضحة المعالم بارزة السمات .

وحيث كان العالم الإسلامى فى جميع أنحاء الأرض آخذاً اليوم فى ثورة ينفض فيها عن نفسه غبار الجمود ، ويدفع فيها عن نفسه رغبة الغرب فى العدوان ، حتى يحفظ كيانه ، فقد برزت مشكلة التربية الإسلامية إلى الصف الأول . وأصبحت موضع تفكير كل مسلم . نعنى كيف ينبغى أن تكون التربية الحديثة الإسلامية حتى تتلاءم مع العالم الجديد الذى نعيش فيه .

وقد لا تمس الدول العربية ، مثل مصر الشام والعراق والمغرب ، بهذه المشكلة ، بمقدار ما تشعر بها الدول التى هجرت اللغة العربية . مثل إيران وباكستان وتركيا ، فضلاً عن يوغوسلافيا والصين وغيرها من الدول البعيدة كل البعد عن اللغة العربية . ذلك أن أساس التربية الإسلامية كما ذكرنا هو القرآن الذى يتلوه الصبيان ويحفظونه فى الدول العربية بحكم اتخاذهم هذه اللغة أداة للتعبير ، ووسيلة للتفاهم والحديث .

وقد جمعت التربية الإسلامية منذ أول ظهور الإسلام بين تأديب النفس ، وتصفية الروح ، وتثقيف العقل ، وتقوية الجسم ، فهى تعنى بالتربية الدينية والخلقية والعلمية والجسمية ، دون تضحية بأى نوع منها على حساب الآخر . فمن المعروف أن النبى عليه الصلاة والسلام افتدى أسرى بدر بتعليم عشرة من أبناء المسلمين القراءة والكتابة . ومن وصايا عمر بن الخطاب أن يعلّم المسلمون أبناءهم السباحة والرماية .

وتبدأ التربية الإسلامية فى البيت عن طريق المحاكاة والتلقين . ذلك أن الطفل

ينشأ فيرى آباءه يقرءون القرآن ، ويقيمون الصلاة ، ويصومون رمضان ، وغير ذلك من الشعائر الدينية المختلفة ، فتنطبع فى ذهنه هذه الصورة ، ويتأثر خطاها بالتقليد ، فإذا لم يتأثر بالمحاكاة دُفع إلى تعلم القرآن وإلى إقامة الصلاة دفعاً . وأمر بها أمراً ، وكلف بها تكليفاً ، ففى الأثر : «مروا أولادكم بالصلاة إذا كانوا بنى سبع ، واضربوهم عليها إذا كانوا بنى عشر» . والصلاة هى ركن الإسلام الركين ، وهى الفاصل بين الإسلام والكفر ، وهى الصلة بين العبد والرب ، وهى ذكر الله على التحقيق ، لأن الصلاة فضلاً عن أنها وقوف بين يدى الله ، وانقطاع عن العالم المادى ، وإقبال عن العالم الروحى فإنها - بما يُقرأ فيها من القرآن ، الذى هو كلام الله وتنزيل من رب العالمين – ذكرٌ له تعالى ، وتذكرٌ بما أوصى به عباده ونصحهم لخير أنفسهم .

فالصلاة هى الأساس الأول فى التربية الإسلامية ، وعندما ارتد العرب بعد الإسلام ، لم يقبل أبو بكر أى تهاون فى وقف الصلاة والزكاة أو تخفيفها ، بل دفع جيوش المسلمين إلى حرب المرتدين حتى يذعنوا لأمر الإسلام ، ويقبلوا أداء فروضه كما أنزلت . ومنذ ذلك الوقت حتى اليوم ، لا يزال المسلمون يأخذون أولادهم بالصلاة ، فينشأون بذلك على تربية إسلامية فى جميع مشارق الأرض ومغاربها .

فإن شئنا أن يستمر الإسلام على مكانته ، فعلينا أن نحفظ هذه القاعدة الأولى فى التربية الإسلامية وهى أمر أبنائنا بالصلاة حتى يألفوها .

غير أن الإسلام مع اتساع العمران ، وارتفاع شأن الحضارة ، قد اضطر إلى تنظيم أمر التربية التى خرجت من نطاق البيت إلى مجال المدرسة ، حيث يقوم على أمر التربية معلمون احترفوا هذه الحرفة ، واختصوا بهذه الصناعة ونشأت من أجل ذلك ثلاثة أنواع من المؤسسات هى : الكتّاب ، والمدرسة ، والمسجد .

أما الكتّاب فهو بالمدرسة الأولية أو الابتدائية أشبه . ولم تكن الدولة هى التى تعين الكتاتيب ، وتنفق عليها ، وتدبر أمر خطة التعليم فيها ، بل ظلت الكتاتيب ، منذ أنشئت قديماً مع ظهور الإسلام ، نظاماً حرًّا يعتمد على استقلال بعض المعلمين بافتتاح مكاتب للتعليم ، وكانت فى بعض العصور تعان من ذوى اليسار ، أو من

الأوقاف التى يحبسها أغنياء المسلمين .

والغرض الأساسى من الكتّاب هو تعليم الصبيان القرآن والقراءة والكتابة ، وبعض النحو والعربية والحساب . وكان الصبيان يذهبون مع الصباح إلى الكتاب يحملون الألواح التى يكتبون فيها الآيات القرآنية التى يحفظونها . وقد جرت العادة أن يكون معلم الكتاب من الذين يحفظون القرآن والعلوم الدينية والفقهية ، فهو فقيه أتم تعليمه على شيخه ، وأخذ منه إجازة بالتعليم ، وكان المسلمون إلى زمن قريب – نعنى إلى أن تغيرت طرق التعليم فى مصر والشرق العربى وأصبحت تنهج نهجاً حديثاً – لا يعرفون فى تعليم أبنائهم وتربيتهم إلا هذه الكتاتيب التى يستمر فيها الصبى حتى سن البلوغ ، فيحفظ إما بعض القرآن أو كله ، والقراءة والكتابة ومبادئ الحساب . وكان الصبيان يحفظون من القرآن جزأى «عم» و «تبارك» على أقل تقدير ، ومنهم من كان يتم «ختمة» القرآن .

صفوة القول ، أن المحور الذى يدور عليه التعليم فى الكتاب على يد الفقيه ، هو حفظ القرآن وما يتصل به من معرفة للنحو واللغة والأدب ، وما يتصل بالتعاليم الدينية من عبادات كالصلاة وسائر الفروض الأخرى ، وبذلك يمكن القول : إن الكتاتيب فى هيئتها التى أوشكت أن تندرس كانت نواة التربية الإسلامية الصحيحة مادام القائم على أمر التعليم فيها فقيهاً فى الدين .

أما المدارس المدنية الحديثة – وهى التى تسمى تارة بالمدارس الإلزامية ، وتارة بالابتدائية ، وأخرى بالأولية ، أو مدارس المرحلة الأولى الموازية لتعليم الكتاتيب – فإن نصيب التربية الإسلامية فيها أقل بطبيعة الحال مما كان فى الكتاتيب : وذلك بحكم اتجاهها نحو العلوم الحديثة من جهة ، وازدياد عدد تلاميذ كل مدرسة ، وعدد تلاميذ كل فصل من جهة أخرى ، بحيث لا يتمكن المعلم من العناية بجميع التلاميذ ، وبحكم عدم وجود أماكن للقيام بالعبادة كالصلاة فى أوقاتها فى هذه المدارس الضيقة ولذلك نرى وجوب إنشاء مسجد صغير ملحق بكل مدرسة ابتدائية فى المستقبل حتى تتم التربية الإسلامية بطريقة عملية ، لا نظرية فقط .

وقد جرى العرف فى الزمن القديم أو يتندب الأغنياء معلمين خاصين لأبنائهم

ولبناتهم ، بدلاً من إرسالهم إلى الكتاتيب ، وكانوا يقومون بما يقوم به الفقيه فى الكتاب من تحفيظ القرآن ومبادئ الدين والعربية والحساب ، وقد روى لنا ابن سينا فى سيرة حياته ، أنه أحضر معلم الدين والأدب . فلم يكد يبلغ العشر من العمر حتى حفظ جميع القرآن وكثيراً من الأدب ، وقد بطلت عادة تعليم الصبى فى البيت على يد معلم خاص مع رقى المدارس الحديثة وانتشار وتعميم التعليم .

صفوة القول ، انتقلت التربية الإسلامية من البيت إلى الكتاب ، وانتشرت الكتاتيب انتشاراً واسعاً كلما اتسعت الحضارة ، فكانت هذه الكتاتيب فى القرون الأولى من الإسلام أداة تعليم الدين واللغة العربية . وقام الفقهاء من أهل السنة يبحثون فى أمر التربية : أتكون إلزامية بالنسبة لجميع أفراد الأمة ، وهل يعلم البنات كما يعلم الصبيان فى الكتاتيب ، وهل يأخذ المعلم أجراً عن التعليم أولا يأخذ ، وكيف يعاقب التلاميذ ، إلى آخر هذه المسائل التى تضرب فى التربية إلى الصميم .

وكتب فى القرن الرابع الهجرى أبو الحسن القابسى رسالة فى هذا الموضوع سماها أحوال المعلمين والمتعلمين ، نادى فيها بأمرين سبق فيهما علماء التربية فى الغرب الحديث ، وهما أن التعليم حق لكل صبى وواجب على الدولة ، وهى مكلفة – إذا لم يكن أهله قادرين على الإنفاق عليه ودفع أجر معلم الكتاب – أن تنفق عليه من بيت مال المسلمين . والحجة فى ذلك أن الدولة مكلفة بتعليم جميع المواطنين الدين ، وسبيل تعليم الدين هو تعلم القرآن قراءةً وكتابةً ، وتعلم القرآن واجب لضرورته فى الصلاة ، والصلاة مفروضة على جميع المسلمين . أما الأمر الثانى فهو تعليم البنات ، لأن الدين الإسلامى عام لجميع الناس ، وقد خاطب الله فى كتابه العزيز المسلمين والمسلمات ، والمؤمنين والمؤمنات ، ولم يُقْصَر الإسلام على الذكور دون الإناث .

وإذا كانت بعض الدول الإسلامية مثل مصر ، والشام قد عدلت عن نظام الكتاتيب إلى نظام المدارس الأولية والابتدائية ، فلا تزال بعض الدول الأخرى مثل الهند والمغرب ، مستمرة على نظام التعليم فى الكتاتيب ، وأكبر الظن أنها سوف تتطور كما فعلت مصر مع تطور الحياة الحديثة .

وكان حفظ القرآن ، أو حفظ ذلك القدر غير اليسير منه ، كافياً فى طبع الأبناء على التربية الإسلامية الصحيحة . فالقرآن ديوان المسلمين ، فيه جوهر العقيدة ، وفيه تفصيل العبادات ، وفيه إرشاد للسلوك الفاضل والطريق المستقيم . ويكفى أن يقرأ الطفل هذه السورة القصيرة وأن يحفظها حتى يتعلم منها وحدانية الله وصفاته . هذه السورة هى «قل هو الله أحد الله الصمد . لم يلد ولم يولد . ولم يكن له كفواً أحد» . وفى الفاتحة التى يحفظها كل مسلم خلاصة وافية للدين ، إذ فيها اعتراف بالوحدانية ، وإقرار بالتعبد والحمد ، وإيمان بالبعث والحساب ، ودعاء بالهداية إلى الصراط المستقيم . وبعد ، فإنّ العقائد الإسلامية ليست من التعقيد بحيث يحتاج المرء إلى إعمال فكر ليظفر بسرها . وأصدق صفة يوصف بها الإسلام أنه دين الفطرة ، وأنه دين البساطة ، وأنه دين العقل السليم . وهذا هو السبب فى انتشاره بين ملايين الملايين من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب ، وهو سر تمسك أهله به . فإذا زاد المسلم للقرآن حفظاً ، زاد للإسلام فقهاً .

والإيمان بالله ، والإقرار بوجوده ، والاعتراف باطلاعه على أعمال العباد ، وخشية المؤمن جزاء الله العادل على ما يرتكب من خير أو شر ، هو حجر الزاوية فى التربية الإسلامية ، ولذلك قيل : «رأس الحكمة مخافة الله» . ولا يلبث الصبى المسلم بعد رسوخ العقيدة فى نفسه ، أن يسلك بوحى من ضميره فيميز بين الحلال والحرام ، وأن يقبل على الخير ويبتعد عن الشر ، وأن يعمل على البر بأهله ، ومساعدة الضعيف ، وإطعام اليتيم والمسكين . ثم هو لا يقف فى دائرة العمل عند حد نفسه ، بل يتجاوز ذلك إلى المجتمع بأسره حسب القاعدة الإسلامية ، وهى : «الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر» . فما يميز التربية الإسلامية فى جوهرها ، هو هذا الضمير المستمد من مخافة الله بعد معرفته حق المعرفة ، حتى يصبح سلوك المسلم صادراً عن وحى الضمير فى السر والعلانية .

وينشأ هذا الضمير الدينى ، المستمد من التربية الدينية ، والذى يصبح فيما بعد أساس الضمير النفسانى والخلقى ، من المعرفة النظرية ومن التأديب العملى . ولذلك قيل عن المعلم : إنه «مؤدب» فى الاصطلاح القديم ، وهو الذى يسمى «المربّى»

فى الاصطلاح الحديث . والمؤدب هو الذى يطبع الطفل على العبادات ، وهو الذى يزرع فى نفسه العادات ؛ وأدب السلوك فى الإسلام مستمد من الدين نفسه علماً وعملاً ، عقيدة وعبادة ، ذلك أن الطهارة ركن أول فى كل عبادة . والطهارة منها ظاهرة ومنها باطنة ، ومنها مادية ومنها روحية . والتربية الإسلامية تأمر بالجانبين معاً . لأن جوهر الإسلام الصحيح يجعل الدنيا سبيل الآخرة . ولا يحرم زينة الله . فالوضوء طهارة ظاهرة ، وخلوص النية من الشوائب طهارة باطنة . وإيتاء الزكاة ودفع الصدقات تطهير للمال وتزكية له . والصوم تطهير للبدن من أدران الطعام ، وتطهير للنفس من شهوات العجب والكبر والميل إلى العدوان . وهكذا نرى أن تعويد الأطفال من الصغر العبادات الإسلامية ، هو التربية بمعنى الكلمة ، إذ تطبعهم على طهارة النفس وتصفيتها وصفائها . فيضرب فى الأرض وكأن بين يديه نوراً يهديه .

والتربية الإسلامية الصحيحة لا تعلّم التواكل بل التوكل ، ولا تنصح بالاستسلام بل بالتسليم والسلام ، ولا تأمر بالعزلة بل بالتعاون والاجتماع ، ولا تؤدى إلى الأثرة بل تفضى إلى الإيثار .

والأخلاق التى يتعلمها الصبى من مؤدبه نابعة من العقائد التى يتعلمها ، ومن العبادات التى يقوم بها . وعلى رأس هذه الأخلاق الطاعة والنظام . فالطاعة واجبة بنص الدين على الأبناء للآباء ، وعلى الزوجة لزوجها ، وعلى المأموم للإمام ، وعلى المتعلم للمعلم ، وعلى الجملة على الصغير للكبير . وطاعة الجاهل للمتعلم ترجع إلى أصل دينى هو طاعة كافة المسلمين للرسول عليه السلام ، حيث قال تعالى : « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » . والمعلمون والآباء والمؤدبون والناصحون والأئمة حين يقومون بتربية الشعب ، صغاراً كانوا أم كباراً ، إنما يأمرون بما أمر الله به على لسان نبيه ، وينهون عما نهى عنه . ولا تصلح تربية بغير طاعة ، ولا تقوم جماعة بغير انقياد . وقد تكون الطاعة عن غلبة وقهر ، كما تكون عن طواعية ورضا ، وثمرتها فى هذه الحالة سرعة تعلم الفرد ، ورقى الأمة . والطاعة والنظام صنوان . ويتعلم المسلمون النظام من العبادات . فالصلاة تؤدى فى أوقات

معلومة ، وينتظم المصلون فى الجماعة وراء الإمام صفوفاً يسوونها كأنها صفوف الجند . ويمسك المسلم فى الصوم عند السحر ، ويفطر عند أذان المغرب . وهكذا الشأن فى كل عبادة . وقد طبق النظام فى الكتاتيب الإسلامية ، عند ذهاب الصبيان إلى الكتاب أول النهار ودراستهم القرآن والكتابة والنحو والحساب على التوالى . فقد جعلوا لكل علم وقتاً من أوقات النهار .

ولكن ما الحال فى الأطفال الذين يأبون الطاعة ، ويخرجون على النظام ويرفضون تأدية ما عليهم من واجبات ، ولا يحفظون ما يقرر عليهم ، ومنهم من يهرب من المدرسة ؟

قرر علماء التربية فى الإسلام عدة مبادئ فى العقاب ، مستمدة من مبادئ الإسلام نفسه . هذه المبادئ هى على الترتيب : النصح والإرشاد ، ثم التأنيب على انفراد ، ثم التقريع على رؤوس الأشهاد ، ثم الضرب آخر الأمر إذا لم تصلح هذه الإجراءات السابقة . وجعلوا للضرب حدوداً وشروطاً ، منها أخذ الإذن من الأب أو ولى الأمر ، ومنها أن يكون الضرب فى مكان مأمون ، وذلك بالدّرة على أن تكون رطبة لينة ، وأن يكون الضرب من ثلاث إلى عشر لا تزيد على ذلك هذا إلى أن المعلم من التلميذ هو بمنزلة الوالد ، فما يفعله الوالد فى عقاب ابنه وتربيته يفعله المعلم . وذهب ابن خلدون إلى أن الشدة بالمتعلمين ضرر بهم ، فقال : «ومن كان مرباه بالعسف والقهر سطا به القهر ، وضيق على النفس فى انبساطها ، وذهب بنشاطها ، ودعا إلى الكسل ، وحمل على الكذب والخبث ، وهو التظاهر بغير ما فى ضميره خوفاً من انبساط الأيدى بالقهر عليه» وهذا لعمرى شبيه بما يذكره اليوم علماء التحليل النفسانى من وجود عقدة نفسية تكمن فى اللاشعور ، وتحرك أفعال المرء فى المستقبل .

والكلام عن العقاب ، يقودنا إلى الكلام عن الحرية فى التربية ، وإلى أى مدى ينبغى أن نذهب فى هذه الحرية ، سواء فى العلوم التى نفرض تعليمها على الطفل ، أو إيثاره اللعب ، أو فى ميله إلى نواحى النشاط المختلفة ولا نزاع فى أن الحرية المطلقة فوضى ، وأن ثمة أموراً يجب على كل مواطن اكتسابها حتى يصبح

مواطناً صالحاً . ينفع نفسه وينفع أمته . ومن هذه الأمور تعلم اللغة وقواعدها ، والدين وأصوله ، ومبادئ الحساب ، وكذلك مبادئ العلوم المختلفة . ولو تركنا الصبى على هواه ما تعلم شيئاً . وبخاصة لأن عقله الصغير لا يفهم «قيمة» هذه العلوم ، ولا يدرك مالها من منزلة وفائدة فى حضارة الأمة ، بل الأمر كذلك فى الدين نفسه . وفى القرآن الذى هو أساس الدين ، فإن عقل الطفل الصغير لا يمكن أن يرتفع إلى إدراك ما تحمله ألفاظه من معان سامية دقيقة . وقد عرض القدماء لهذه الحرية ، ونادوا بالأخذ بما يلائم عقلية الطفل ، والتدرج معه فى التعليم ، ومن ذلك أن يتأخر تعليم القرآن وتحفيظه إلى أن يكبر الصبى ويعقل . وعلق ابن خلدون على هذه الطريقة فقال : «وهو لعمرى مذهب حسن ، إلا أن العوائد لا تساعد عليه» ؟ ذلك أن حفظ القرآن فى الصغر هو أساس الدين وعماد اللغة ؟

وإذا كانت الحرية بالنسبة للطفل غير ميسورة فى المرحلة الأولى من التعليم ، فله بعد ذلك حرية تكاد تكون مطلقة ، حين ينتقل التعليم من الكتّاب إلى المدرسة ، ومن المدرسة إلى المسجد ؛ فقد كانت المساجد فى الإسلام ، ولا تزال . أماكن العبادة ، ومراكز للتعليم . والجامع الأزهر خير عنوان على ذلك ، كما هو معروف وقد نشأ بين الكتاب والمسجد نوع من المؤسسات التعليمية يسمى المدرسة ، وكان يلحق عادة بالمسجد ، ويتلقى فيه الطلبة التعليم المتوسط الذى هو أرفع من تعليم الكتاب . وأقل من تعليم المسجد . ويمتاز بخضوعه للنظام كما هو الحال فى الكتاتيب . أما التعليم فى المسجد فهو حر حرية مطلقة . ليس هناك موعد لحضور الطلاب أو لانصرافهم . وليس الطالب مقيداً بالاستماع إلى أستاذ معين ، أو دراسة علم معين . وليس الشيخ مقيداً بمنهج ثابت ؛ فكان الطلاب ، ومعناهم الأصلى طلاب العلم ، يحضرون على الشيخ الذى يروقهم فى حلقته ، فإذا أحب طالب دروس شيخ لزمه ، وأخذ عنه ، حتى يتخرج على يديه ، ويجيزه للتدريس فيما بعد . تلك لعمرى هى الطريقة الجامعية الصحيحة التى تفسح المجال للتقدم والبحث .

وإلى جانب مبدأ الحرية فى التربية ، نجد مبدأ آخر هو التطور . وهو مبدأ

مستمد كذلك من طبيعة الإسلام . ذلك أن تعاليم الإسلام عامة صالحة لكل زمان ومكان ، وتتمسك فقط بالأصول الكبيرة كالإيمان ، وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلا . أما صور التربية : أتكون فى البيت أم فى المدرسة ، أتكون فى الصباح أم بعد الظهر أم فى المساء ، أيتعلم علوماً دنيوية إلى جانب العلوم الشرعية أم لا ، كل ذلك لا يقف الإسلام فى سبيله ، بل يحث عليه مادام فيه مصلحة المسلم . وقد تعددت صور التربية الإسلامية بتعدد الثقافات التى اتصل بها الإسلام خلال تاريخه الطويل ، فأخذ عن الفرس كما أخذ عن الروم ، وتطور بما أخذ عنهما ، ثم جمدت التربية فى عصور التأخر . واليوم تأخذ التربية الإسلامية بالأساليب الحديثة التى انتهت إليها تجارب علماء الغرب . وليس معنى ذلك أنها أصبحت تربية أمريكية أو إنجليزية أو فرنسية ، بل هى تربية إسلامية فى صميمها وفى جوهرها . ولم تجد بأساً فى أن تستفيد من تجارب الآخرين حتى تطبقها على تعليم أبناء المسلمين ، فى طرق الحفظ ، وأساليب التربية ، ونظام المدرسة وخطط الدراسة ، ونظم الامتحانات ، وغير ذلك من الأمور التى أصبحت مقررة علميًّا وخاضعة لقوانين نفسانية .

ومبدأ ثالث فى التربية الإسلامية ، إلى جانب الحرية والتطور ، هو تكافؤ الفرص . وهو مبدأ نادى به المربون حديثاً جدًّا ، مع أنه قديم قدم الإسلام . ذلك أن الإسلام فى جوهره ديمقراطى لا يعرف نظام طبقات اجتماعية ، فالناس سواسية كأسنان المشط ، ولا فضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى ، وجميع المسلمين يقفون بين يدى الله فى الصلاة الجامعة على قدم المساواة . وحيث كان جميع المسلمين مكلفين بمعرفة الدين وأداء العبادات ، فقد وجب تعليمهم . ونشأ من ذلك إلزام التعليم . وسواء كان التعليم فى الكتاب ، أو المدرسة ، أو المسجد ، فلا يحرم أحد من التعلم لفقره ، وحلقات المشايخ فى المساجد تتسع . كما نعرف حتى اليوم ، لكل طارق وكل طالب .

وقد ابتدع الإسلام خلال عصور طويلة . نظاماً يشجع على التعليم ويرفع أعباءه عن عاتق الطلاب ، هو وقف الضياع والعقار وصرف ريعها على المدارس

وعلى الكتاتيب . وظل هذا النظام متبعاً فى مصر إلى عهد قريب إلى أن أصبح التعليم مرفقاً من مرافق الدولة . فلم يكن غريبا أن يرتفع من مصاف الطبقات الفقيرة علماء نبغوا لما عندهم من استعداد . حقًّا ابتدع أغنياء المسلمين فى بعض العصور نظام المؤدبين الخاصين ، فابتعدوا عن روح الإسلام الديمقراطى ، وارتموا فى أرستقراطية ليست من الإسلام فى شىء ، ولكن هذه الأنظمة موجودة فى كل أمة ، وتزيد أو تقل بحسب تقلب التاريخ .

وقد يسبق إلى الوهم أن التربية الإسلامية لا تعنى بالتربية الفنية ، كما هى الحال فى دول الغرب . وهذا وهمٌ باطل . فالفنون الجميلة فى الاصطلاح هى الموسيقى ، والتصوير ، والنحت ، والزخرفة ، والعمارة ، وعناية الغربيين اليوم وهى عناية ورثوها عن اليونان ، هى تعلم الموسيقى والتصوير . أما الإسلام فقد استعاض بهذين الفنين ، بالنسبة للأطفال ، فنوناً أخرى جميلة ، هى الخط ، والشعر ، والزخرفة العربية . ولا ينبغى أن يذهب عن بالنا أن القرآن نفسه فيه موسيقية سماوية أسمى من الشعر ، وبخاصة فى السور القصار . ومن أجل ذلك يتغنى الأطفال بالقرآن عند حفظه فطرةً وسليقةً ويزين القراء التلاوة بالصوت الحسن . ولم تكن الموسيقى محرمة فى عهود الإسلام المزدهرة ، وهذا كتاب الأغانى ، أكبر موسوعة أدبية فى الإسلام ، يحكى أخبار المغنين والشعراء والأصوات التى كانوا يغنونها . وكان للخلفاء أنفسهم مشاركة فى الموسيقى والغناء وسمى الفارابى بالمعلم الثانى لأنه وضع علم الموسيقى . أما التصوير والنحت ، فيبدو أن رأى الإسلام فى تحريمها كان أقطع ، خشية عبادة الصور والأوثان . وقد كان ذلك فى عصور الجاهلية والضعف ، ولم يعد الإسلام اليوم يخشى شيئاً من ذلك فأباحهما لطلاب المدارس . وهذا دليل آخر على حرية الإسلام وتطوره .

صفوة القول ، التربية الإسلامية تطبع شخصية المسلم بطابع خاص ، يميزه عن أى لون آخر من ألوان التربية . ولذلك يتعارف المسلم فى أندونيسيا مع المسلم فى مصر ، مع ابتعاد الشقة واختلاف اللسان . ويبلغ عدد المسلمين فى الوقت الحاضر حوالى خمسمائة مليون موزعين فى أرجاء العالم ، لا يتكلم منهم اللغة العربية إلا أقلية

لا تزيد على الربع ، ومع ذلك فلو التقى مسلم من أندونيسيا مع آخر من يوغسلافيا . أولها من آسيا . والآخر من أوربا ، لوجدا بينهما تآلفاً وتفاهماً . هو ثمرة هذه التربية الإسلامية . وإنما جاء التقارب من طبع الشخصية بطابع خاص فى العقيدة والأخلاق . والاتجاهات النفسية ، والنظرة إلى الحياة . كل ذلك لأن المسلمين فى مشارق الأرض ، ومغاربها يحفظون كتاباً واحداً ، ويعبدون إلهاً واحداً يركعون له ويسجدون ، ويتخذون شعاراً واحداً هو الله أكبر .

وقد برزت فضائل التربية الإسلامية إلى المحيط الدولى . وثبت عندما وضعت فى الميزان ، أنها أفضل تربية . ففى هذا الوقت الذى يهدد فيه العالم بالخراب الشامل من جراء الحرب الذرية . إذا بالشعوب الإسلامية تقف موقف الحق والعدل . تدافع عن نفسها وتأبى العدوان . وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر . وتنادى بالتعاون والسلام . وأكبر الظن أن موقف اليوم يشبه الصراع بين الفرس والروم ، أى بين الشرق والغرب ، قبل ظهور الإسلام مباشرة . فلما أشرق نور الإسلام سقطت الدولتان ، وورث الإسلام ما خلفتاه من حضارة ، وحفظ الإنسانية من الزوال بفضل التربية الداعية إلى الصلاح .

ذلك أن التربية عبارة عن نقل الحضارة من جيل إلى جيل . حتى يظل الإنسان فى المستوى الرفيع الذى وصل إليه . ويتمثل هذا المستوى فى الآداب . والعلوم ، والفنون ، والصناعات ، التى بلغ من اتساعها وانتشارها أن أصبح من المستحيل على شخص واحد أن يحيط علماً بكافة هذه الفروع من الحضارة . ولذلك كانت الكتابة أساس كل حضارة ، وحفظ التدوين ثمارها . وقد مجَّد الإسلام الكتابة لما لها من أثر فى دفع عجلة الحضارة ، فكان القرآن كتاباً ، « ذلك الكتاب لا ريب فيه » . وكانت أول آيات أنزلت على رسول الله ﷺ « اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذى علم بالقلم » فنبه الله تعالى ، فى أول ما أنزله على نبيه ، على فضل الكتابة ، لما فيها من المنافع العظيمة . ولولا الكتابة مادونت العلوم ، ولا قيدت الحكم ، ولا ضبطت أخبار الأولين ومقالاتهم ، وما استقامت أمور الدين والدنيا . وقد شجع النبى على تعلم الكتابة

باقتداء أسرى بدر بتعليم عشرة من أبناء المسلمين ، فوضع بذلك الأساس الحضارى للتربية الإسلامية . وتقدمت الحضارة الإسلامية بالفضل هذه التربية الإسلامية التى تحافظ على التراث القديم . كما تسعى إلى التقدم والتجديد ، يهديها فى ذلك نفع الإنسانية وصلاح العباد .

**الدكتور أحمد فؤاد الأهوانى**